مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (١٤)، العدد (٢)، ص ص ١٠١٩-١٠٦٥، (ربيع الآخر ١٤٤٢ هـ/ نوفمبر ٢٠٢٠)

سيسيولوجيا الاغتراب الديني بين التأصيل الإسلامي والنموذج الغربي
دراسة استقرائية تحليلية مقارنة على عينة من الأحاديث النبوية الكريمة في " الغربة "

أ. عبدالله حمد الزيد
طالب دراسات عليا/ جامعة القصيم

ملخص البحث: تهدف هذه الدراسة إلى الوصول لنموذج معرفي إسلامي لدراسة سيسيولوجيا الاغتراب الديني في المجتمعات الإسلامية، من خلال توظيف منهج استقرائي تحليلي، على الصحيح من الأحاديث النبوية الكريمة في "الغربة " وتقديم قراءة نقدية في تناولات ثلاثة من العلماء المسلمين في الاغتراب: ابن تيمية، وابن رجب، والإمام الشاطبي رحمهما الله جمعيا، ومقارنة تلك التناولات مع تناولات أربعة من الفلاسفة والمنظرين الغربيين هم: هيجل، فيورباخ، أميل دوركايم، روبرت ميرتون، ثم تقديم مقترح لافتراضات إثرائية على النظرية " اللا معيارية" متوسطة المدى لروبرت ميرتون، وقد خرج الباحث ببعض النتائج والتوصيات العملية لدراسة سيسيولوجيا الاغتراب الديني في المجتمعات الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع الديني /النماذج المعرفية/ الاغتراب/ الإسلام/علم الاجتماع المعرفي

المقدمة

شكل مفهوم "الاغتراب" الديني جزء مؤثرا في التراث الفلسفي والنظري الغربي، فقد كان مادة رئيسية للفكر الاجتماعي منذ " توماس هوبز، وجان جاك رسو، وهيجل، وفيورباخ، وماركس، وحتى رواد المدرسة النقدية هوركايمر، وأدورنو، ممن قدموا قراءات عميقة لمفهوم الاغتراب بأبعاده السياسية والاقتصادية والدينية واتجاهاته السلبية والإيجابية، وكان لتلك القراءات تأثيرها المحوري والكبير في بناء نموذج معرفي تتكئ عليه المقاربات النظرية الغربية في الاغتراب الديني.

هذا الاعتناء الفلسفي الغربي يمكن تلمسها بوضوح عبر النظر – مثلاً - بما توصل له الجدل الهيجلي من فلسفات حول اغتراب روح الإنسان في الدين الطبيعي، ثم الانتقال إلى الدين الفرداني التمثيلي في المسيحية والصراع المرير مع الكنيسة، وحتى الوصول إلى دين العقل والروح المطلق عند هيجل، ونزعة الدين الفلسفي لدى الهيجاليين الشبان، كـ "فيورباخ" والذي قام بتحطيم لاهوت أستاذه المثالي للوصول إلى تهشيم فكرة (دين الوحي) بذريعة أن الدين اللاهوتي جاء نتيجة بشرية لاغتراب الإنسان عن روحه الطبيعية، وبالتالي طرح فيورباخ بديلاً تمثل بشكل جديدٍ من أشكال الدين الإنساني بدون لاهوت أو شرائع سماوية، دين الأنثروبولوجيا بديلاً عن دين الثيولوجيا، مؤكدا بأن الاله الأسطوري الذي ابتكره عقل الإنسان في صراعه مع الطبيعة كان سببا لاغترابه عن محيطه الواقعي، واستسلامه وخوفه من الطبيعة بدلاً من استثمارها والتمتع بخيراتها، هذه الرؤية وظفها بعد ذلك تلميذه كارل ماركس في جدليته المادية التاريخية عبر تأكيده على أن الدين اللاهوتي أصبح افيونا ومخدرا للشعب الألماني المفكك، وأحد أسباب اغترابه وإشكاليته الاجتماعية وصولا لاغترابه الاقتصادي في كتابه رأس المال.

مثل هذه النموذج الغربية في الاغتراب، والذي أشرنا إلى جزء من تاريخ تطوره، يستند معرفيا على نموذج **"paradigm"** مادي لا دينية، يقدم للدارس والباحث في علم الاجتماع في المجتمعات الإسلامية على شكل أطر تنظيرية أحادية لمفهوم الاغتراب الديني، في مجتمعات لا تتشابه في ظروفها وتكونها ونماذجها المعرفية والإدراكية مع المجتمعات الغربية، في الوقت الذي نجد أن القران الكريم والسنة النبوية قد طرحا نموذجا معرفيا إسلاميا لا يتمترس خلف التجريبية الوضعية والمنطقية ليثبت مصداقيته ؛ بل يستند على وحي رباني : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ {فصلت: ٤٢} .

ولذا كان لزاما وواجبا على المجتمع العلمي في المجتمعات الإسلامية الاستمرار في التنقيب، والبحث عن الأبعاد، والقراءات التي توصلنا لنموذج **paradigm** إسلامي كإطار يستوعب الظواهر الاجتماعية المتوافرة ؛ لا عبر الاستنباط المتعجل ولي عنق النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وإنما عبر توظيف يستعين بمنهجية علمية.

ولذا رأى الباحث أن التقليب والبحث عن نموذج إسلامي لفهم ظاهرة الاغتراب الديني ليس من قبيل الترف العلمي، بل إنه يقع ضمن أولويات الباحث الاجتماعي في مجتمع مسلم يؤمن بمركزية الدين وأهميته، وبأن التسليم فيما تضمنته النماذج المعرفية الغربية المادية يعد خللا وقصورا منهجيا، وهذا لن يتأتى إلا بالرجوع لما تضمنته النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية على صاحبها أفضل صلاة وأتم تسليم، وكذلك من خلال استعراض التراث المعرفي لعلماء مسلمين حول مفهوم الاغتراب الديني، وتوظيف كل تلك القراءات عبر منهج استقرائي تحليلي للوصول إلى النموذج الإسلامي ، ومن ثم مقارنة هذا النموذج المعرفي الإسلامي المقترح مع النموذج الغربي، وتقديم مقترح لافتراضات إثرائية نظرية جديدة على النموذج

الغربي، قابلة للتجربة، من خلال اشتغال الباحث على نموذج نظري غربي "اللا معيارية" لعالم الاجتماع الأمريكي روبرت ميرتون؛ حيث رأى الباحث في نظرية ميرتون متوسطة المدى أحد التوظيفات العلمية السيسيولوجيا للنموذج الغربي للاغتراب الديني، مع التأكيد على أن الباحث قدم تمثلات أخرى لعلماء غربيين أخرين في مفهوم الاغتراب مثل هيجل، وفيورباخ، وإميل دوركايم، بهدف الوصول إلى مدخل معرفي إسلامي لدراسة سيسيولوجيا الاغتراب الديني في المجتمعات الإسلامية، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الفصل الأول: الإطار المنهجي للدراسة

مشكلة الدراسة:

يعد مفهوم الاغتراب الديني أحد الموضوعات العلمية المؤثرة التي أشبعتها المدارس الفلسفية والاجتماعية الغربية بحثا ودراسة ضمن نموذج معرفي وضعي لا ديني، هذا النموذج الغربي يستند على فكرة رئيسية وهي أن الدين يمثل معرفة ميتافيزيقية غير يقينية، وغير قابلة للتجربة والتحقق، كما أن هذا النموذج المعرفي الغربي ناتج عن رؤية للدين ترى بأنه يكرس حالة الخطيئة الأولى في الوعي الإنساني، ويربط الفرد بشعور من الخوف والقهر من آلهة غيبية لا يمكن التحقق من وجودها، وهذه الرؤية وضعت الإنسان الغربي في حالة مظلمة وتعيسة من الاغتراب الروحي أمام عجزه عن التعامل مع قوى الطبيعة والكون، ومع أفول عصر النهضة جاء العلم التجريبي بصرامته المنهجية والعقلية واستطاع أن يقلب الطاولة أمام عجز اللاهوت المسيحي، وتمكن من نقل محور التفوق نحو " بروميثيوس" الإنسان الغربي المتطور والمتفوق، والذي أصبح نموذجا للإله الإنسان في الوعي الغربي في القرن التاسع عشر، عبر نموذج علماني مادي، مما أكد في الوعي الغربي الأوربي ضرورة الهروب من البعد الروحي والديني إلى غرق أكبر في البعد المادي اللا ديني والتوحد معه، حتى أصبح الوعي الغربي لا يؤمن بأي مرجعية غيبية لا مادية، وأصبح العلم التجريبي هو الدين الجديد، وأصبحت المنفعة البراغماتية كتاب الغرب المقدس، مما خلق مع مطلع القرن العشرين حالة من العدمية المرجعية والمعيارية، وأدخل العقل الغربي في حالة من العدمية والشك بأي معرفة مطلقة، وبتالي أصبح المعيار الأخلاقي الحاكم هو المصلحة المباشرة واللذة والاستهلاك، هذه النظرة الغربية للدين من الطبيعي أن ينتج عنها "اغتراب سلبي للدين".

هذا النموذج الغربي للاغتراب الديني بنظرته السلبية للدين، يقابله نموذج معرفي إسلامي منتج لاغتراب ديني "بنظرة إيجابية" وهو نموذج يؤكد على ضرورة ثبات القيم والمعايير الدينية مهما كانت المغريات والشعور بالاغتراب، ويرى الباحث أننا في مجتمعاتنا الإسلامية أمام بيئة خصبة للاغتراب الديني، مما ينبئ بمشكلة انحلال للقيم الدينية لأنها – بحسب النموذج المعرفي الغربي - لا تتناسب مع متطلبات الحياة الحديثة، وهذا ما سيشكل اغترابا "سلبيا" للمتمسكين بالدين في المجتمعات الإسلامية، وبالتالي يرى الباحث أن من الضعف العلمي والقصور المعرفي اكتفاء الباحث المسلم بالنموذج المعرفي الغربي لدراسة ظواهر الاغتراب الديني، دون أي إسهامات نقدية وإثرائية، رغم اختلاف المفهومين الغربي والإسلامي للاغتراب الديني نظرا لاختلاف النموذجين المعرفيين الذين ينتجان عنهما.

كل ذلك شكل لدى الباحث حافزا وقلقا علميا لدراسة الاغتراب الديني من خلال نموذج معرفي إسلامي، ويرجوا الباحث أن ما يقدمه في هذه الدراسة من جهد متواضع، يصبح بذرة لبحوث وجهود معرفية أكمل وأثرى، بحيث تستكمل النظر في مثل هذا المفهوم المؤثر والحساس لمجتمعاتنا الإسلامية، والتي يواجه فيه الفرد صراعا مريرا مع التغيرات الاجتماعية والثقافية والدينية.

أهداف الدراسة:

ينطلق الباحث من هدف رئيسي هو محاولة الوصول إلى نموذج معرفي إسلامي لسيسيولوجيا الاغتراب الديني ذو الخصائص المعرفية الغربية، وذلك عبر توظيف منهج استقرائي تحليلي يتتبع التناولات الإسلامية لمفهوم الاغتراب الديني، ويقارنها مع النموذج المعرفي الغربي بهدف الوصول لملامح النموذج الإسلامي لسوسيلوجيا الاغتراب الديني من خلال تحقيق عدة أهداف فرعية:

أولاً: استقراء في التناولات الإسلامية لمفهوم الاغتراب الديني عبر محورين:

١. المروي من صحيح السنة النبوية المطهرة - حديث "الغربة" كعينة قصدية لهذه التناولات.

٢. قراءة نقدية في تناولات ثلاثة من علماء المسلمين لمفهوم اغتراب الدين هم:

- تناولات "ابن تيمية رحمه الله" للغربة في مجموع الفتاوى.
- تناولات " ابن رجب الحنبلي " رحمه الله للغربة في كتابه كشف الكربة في وصف أهل الغربة.
- تناولات الإمام الشاطبي للغربة في مقدمة كتابة الاعتصام.

ثانيا: قراءة في التناولات الغربية لمفهوم الاغتراب الديني، عبر نموذجين: الأول تناولات الفيلسوفين الألمانيين "هيجل/فيورباخ" والذين يمثلان امتدادا لخط معرفي جدلي مادي واحد، والنموذج الثاني: لعالمي الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم، والأمريكي روبرت ميرتون، وهما أيضا امتدادين يمثلان ذات المدرسة البنائية الوظيفية.

ثالثا: أما الهدف الثالث من هذه الدراسة فهو محاولة الوصول إلى نموذج معرفي سوسيو/إسلامية لمفهوم الاغتراب الديني عبر تحليل مقارن لأوجه التباين والتماثل مع المنظور الغربي وتوظيف (النموذج المعرفي) كأداة للمقارنة، ثم تقديم فروض إثرائية مقترحة على النظرية " اللا معيارية " لروبرت ميرتون وذلك انطلاقا من النموذج المؤصل إسلاميا في سوسيلوجيا الاغتراب الديني.

فروض الدراسة:

يطرح الباحث عدة افتراضات تسعى الدراسة لنفيها أو أثبات صحتها وهي:

أولاً: لا يمكن دراسة ظاهرة الاغتراب الديني في المجتمعات الإسلامية عبر الاكتفاء بالنماذج المعرفية الغربية.

ثانيا: يوجد هنالك تباينات جلية ومؤثرة بين النموذج المعرفي الغربي والنموذج الإسلامي في ظاهرة الاغتراب الديني.

ثالثا: يمكن الوصول إلى فروض نظرية قابلة للاختبار تجريبيا لدراسة الاغتراب الديني من منظور إسلامي.

أهمية الدراسة:

يرى الباحث أن لدراسته:

أهمية نظرية: تتمثل في ندرة الأبحاث التي تتناول ظاهرة الاغتراب الديني من منظور إسلامي بأبعاد معرفية، رغم أهمية الظاهرة الدينية وتجلياتها في المجتمعات الإسلامية، إذ يعد الدين عنصرا مؤثرا بشكل كبير ولا يمكن تجاهله أو تهميشه، ومن هنا كان لزاما على العقل العلمي الموضوعي الاعتناء بالتأصيل الإسلامي عبر توظيف النماذج المعرفية؛ لتجنب التحيزات والتباينات الكامنة في الإطار النظري الغربي عند دراسة ظاهرة الاغتراب الديني، كما تقترح الدراسة فروضا نظرية لإثراء النظرية الغربية للاغتراب الديني عبر مفاهيم معرفية تلبي الحاجة النظرية للأبحاث الاجتماعية الإسلامية.

كما أن للدراسة أهمية عملية: تتمثل في وجود أبحاث تؤكد على العلاقة الإحصائية بين الاغتراب الديني واتجاهات العنف لدى الشباب المسلم كالدراسة التي قام بها الباحث عبدالقادر بلعباد تحت عنوان **(الاتجاه نحو العنف وعلاقته بالاغتراب لدى الشباب في ضوء متغيري الثقافة والجنس)** مما يعطي الأهمية العملية لدراسة المنظور الإسلامي للاغتراب الديني؛ وليس تحييد الدين بالجملة كما تقترح بعض

المقاربات الغربية، والتي أنتجت في ظل ظروف لا تشبه مطلقا ظروف ومتغيرات المجتمعات الإسلامية.

المفاهيم الدلالية والإجرائية:

١ -**السيسيولوجيا**: كلمة معربة تستخدم للدلالة على " علم الاجتماع البشري" وهو العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعية، وتشرح الموسوعة العربية العالمية "السيسيولوجيا" بأنها مجموعة المعارف التي تدرس الجماعات والأفراد والمؤسسات المكونة للمجتمع البشري عبر صياغة نظريات ومناهج علمية يمكن تعميمها واختبارها. **(الموسوعة العربية، ج١، ط ١٤١٩ه).**

وقد قصد بها الباحث إجرائيا: كل ما أنتجه العقل الغربي في مجال علم الاجتماع من دراسات، ومناهج، ونظريات لبحث الظاهرة الاجتماعية الإنسانية.

٢ -**الاغتراب الديني:** يمكن تعريف الاغتراب لغة: بأنه " البُعد " تقول العرب (أُغْرب عن وجهي) أي أبعد، وفي معجم لسان العرب: الغريب أي البعيد عن وطنه، وفي الأحكام الشرعية الحكم بـ"التغريب" أي إبعاد الجاني عن وطنه بقدر معلوم.

وأما تعريف الاغتراب اصطلاحا: فلهذا المفهوم الشائك والمتنوع الدلالة تعريفات كثر بحسب تناول هذا المصطلح، وقد تم تناول الاغتراب في العلوم الاجتماعية مرة من مطلقات اقتصادية كما طرحه ماركس في كتابه رأس المال، حول اغتراب الطبقات العاملة واستلاب ما تنتجه من قبل الطبقات البورجوازية المحتكرة لرأس المال، ومرة أخرى يطرح مفهوم الاغتراب من منطلقات سياسية كما عند الفيلسوفين "تومس هوبز" و"جان جاك روسو" في تناولاهما التأسيسية لمفاهيم العقد الاجتماعي، وكذلك قد تم طرحه من منطلق ديني من قبل الفيلسوفين الألمانيين هيجل وفيورباخ بحسب ما تم إيضاحه في ثنايا مقدمة الدراسة.

التعريف الإجرائي للاغتراب: يقصد الباحث بالاغتراب الديني هو ذلك الانفصال الروحي والاجتماعي الذي يحدث للمسلم ؛ بسبب التباين بين القيم التي يستمدها الفرد من دينه من جهة ، وبين القيم المضادة التي يفرضها مجتمع الحداثة والتغير من جهة أخرى ، والتي أخذ المجتمع يلزم الفرد المسلم بها بمؤسساته وسلطاته ، الأمر الذي يجعل من الفرد في حالة حيرة واضطراب قيمي غيري معياري **"لا معيارية القيم"** بين ما يعتقد به من جهة ، وما عليه أن يمارسه كواقع معاش لتحقيق النجاح والاندماج في مجتمع الحداثة من جهة أخرى ، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى الشعور بالعجز والغربة ، كما أن استشرى تلك الظاهرة بين فِئة معزولة من المجتمع قد يؤدي بها احيانا للتمرد والثورة على الأوضاع السائدة وغير المرغوبة.

التأصيل:

الأَصْلُ في اللغة أَسفل كل شيء وجمعه أُصول ، ويقال: أَصَّلْتُهُ تَأْصِلاً : جعلت له أصلا ثابتا يبنى عليه غيره ، وبهذا يكون معنى التأصيل لغة إرجاع القول والفعل إلى أصل وأساس يقوم ويبنى عليه.

وأما التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية: قدم الدكتور إبراهيم رجب تعريفا للتأصيل الإسلامي يرى فيه (أن التأَّصيل الإسلامية عبارة عن عملية إعادة بناء العلوم الاجتماعية في ضوء التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والوجود ، وذلك باستخدام منهج يتكامل فيه الوحي الصحيح مع الواقع المشاهد كمصدر للمعرفة) (رجب ، ١٩٩٦ ، ص٣٠) بحيث يستخدم ذلك التصور الإسلامي كإطار نظري لتفسير المشاهدات الجزئية المحققة والتعميمات الإمبيريقية (الواقعية) وفي بناء النظريات في تلك العلوم بصفة عامة.

أما إجرائيا : فيقصد الباحث بالتأصيل هو محاولة الوصول إلى نموذج معرفي إسلامي لدراسة سوسيلوجيا الاغتراب الديني في المجتمعات الإسلامية، انطلقا من الإيمان بتركيبية ونسبية الظاهرة الاجتماعية، على العكس من الظاهرة العلمية المادية الوضعية ذات الخصائص المعيارية التي تتسم بالثبات والموضوعية.

النموذج المعرفي الإسلامي:

النموذج في اللغة: مفرد وجمعه نموذجات ونماذج، وفي الوسيط: هو ما يتخذ مثالا يحتذى به، ومثال الشي.

وفي الاصطلاح: فإن النموذج المعرفي **The paradigm** مفهوم نحته الفزيائي تومس كوهن في ستينيات القرن الماضي وهو عبارة عن هروب من نمط التفكير المحدود في ظاهرة معينة ؛ إلى قالب نظري جديد يمكن من خلاله صياغة نظريات وقوانين جديدة، والنموذج المعرفي "البردايم" مجموعة من المبادئ المعرفية والقواعد المنهجية التي ينطلق منها الباحث لإجراء دراسته لظاهرة ما.

ويمكن أن نضرب مثالاً للتوضيح: بالنموذج الذي كان يستند إليه العالم الفيزيائي نيوتن في الفيزياء الكلاسيكية والتي استمرت لقرون قبل أن يأتي الفيزيائي أينشتاين بالنموذج المعرفي القائم على النسبية، ويغير بذلك من كثير من الحقائق التي كان العلم يجزم بقطعيتها.

والباحث يوظف **مفهوم النموذج المعرفي الإسلامي:** مستلهما جهود المفكر المصري المسلم عبدالوهاب المسيري – رحمه الله – حيث تعرف الباحث من خلال الاطلاع على دراسته النظرية/التطبيقية في النماذج المركبة والمنشورة في كتاب **"دفاع عن الإنسان"** وفيه بسط المسيري – رحمه الله – فلسفته في النماذج المعرفية والإدراكية لتفسير الظواهر الكامنة في الحقيقة العلمية موضع الدراسة، داعيا لعدم التسليم وتلقي

المعلومات الموضوعية بشكل كمي سطحي دون تفسيرها والغوص خلف مكامن التحيز فيها، وهو ما يطلق عليه المسيري **(النماذج الاختزالية)** فالنموذج المعرفي الاختزالي يتجه نحو اختزال العالم إلى عنصر واحد (مادي/روحي) حلولي، أو إلى عدة عناصر (مادية أيضا) ولكنها بسيطة وسطحية، وهذا النموذج الاختزالي يتجاهل تماما الجانب التركيبي في الظاهرة الإنسانية؛ وبأن الله سبحانه خلق الإنسان كائن روحاني مفارق لما هو طبيعي ومادي.

فيما يرى المسيري – رحمه الله – أن هنالك نموذج معرفي تركيبي يحوي على عدة عناصر متداخلة ومركبة تتسم بالاتساق الداخلي؛ كما يجب أن تكون النماذج المعرفية في العلوم الإنسانية، وينطلق المسيري من رفض فكرة النموذج **الاختزالي** في دراسة الكون والطبيعة والإنسان؛ كونها نموذج معرفي حلولي قاصرة على نموذج يأخذ معيار المادة بالاعتبار ويتجاهل الجزء اللامادي المفارق في الإنسان وهي الروح، فالإنسان جسد وروح، ويجب أن يدرس بشكل مركب عبر نماذج مركبة تقبل التنوع والتفريق: بين الله والطبيعة، بين المادة والروح، بين الإنسان والخالق سبحانه وتعالى، والا سنقع بكل سهولة بموضوعية نظنها منهجية إلا أنها موضوعية متلقية اختزالية سطحية تتعامل مع الظواهر الإنسانية بشكل ناقص ولا منهجي.

الأدبيات والدراسات السابقة:

أكدت الأدبيات والدراسات التي اطلع عليه الباحث عدم تناول مفهوم الاغتراب من منظور إسلامي، حيث تناولت أغلب الدراسات إما أثر الاغتراب على البناء والفعل الاجتماعي، أو أنها دراسات تتناول الإطار النظري للاغتراب من منظور غربي فقط، ويمكن استعراض بعض تلك الدراسات:

أولا : دراسة حليم بركات من منشورات مركز دراسات الوحدة العربية بعنوان **" الاغتراب في الثقافة العربية – متاهات الإنسان بين الحلم والواقع" ٢٠٠٦م** وفيها قراءة نقدية مستفيضة لمفهوم الاغتراب ومعانيه ومدلولاته وتناولاته النظرية في التراث الغربي، وقد وظف القائم بالدراسة المنهج التحليلي النقدي للوصول إلى طبيعة العلاقات بين الإنسان والمؤسسات والأنظمة السياسية والاجتماعية وما يتصل بهذه العلاقة من نزوع نحو السيطرة والاستغلال، وهو – بحسب القائم بالدراسة - ما عمق الفجوة بين واقع الإنسان وطموحاته في عصر الحداثة وانتج حالة من الاغتراب الديني والاقتصادي والثقافي والسياسي في المجتمعات العربية.

ويمكن تلمس وجهاً للتشابه بين دراسة د. بركات مع دارسة الباحث في "سيسيولوجيا الاغتراب كتأصيل إسلامي" وهو أنّ كلا الدراستين تتفقان على مشكلة الدراسة وما تعانيه المجتمعات الإسلامية والعربية من حالة اغتراب ثقافية وروحية، إلا أن دراسة د. بركات ركزت على الجانب النظري النقدي عبر منهج تحليلي نقدي يتناول التراث النظري الغربي ؛ دون الالتفات والعناية بالمداخل المعرفية الإسلامية الاستنباطية، وهذا ما يؤكد على أهمية دراسة التأصيل الإسلامي لمفهوم الاغتراب لمجتمعات إسلامية في ثقافتها ونشأتها نظرا لندرة الأبحاث التي تتناول هذا الجانب.

ثانيا : دراسة للباحث بركات مراد المنشورة في العدد "٦٢" من مجلة المنظمة العربية للترابية والثقافة – معهد البحوث والدراسات ٢٠١٥م بعنوان **" مفهوم الاغتراب بين الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي "**. وإن كان الباحث يرى أنه الجهد العلمي الذي قام به د. بركات لم يرتقِ إلى أن يكون دراسة ؛ بل هو أقرب للمقالة العلمية منه للدراسة المنهجية، فما قدمه د. بركات كان مجرد استعرض مسحي وصفي غير مقارن للتراثين النظريين(الغربي والإسلامي) لمفهوم الاغتراب، وكانت المقالة

إجابة مقتضبة على تساؤل وحيد حول مفهوم الاغتراب في التراث الإسلامي وتناولاته ؛ دون التعمق في تلك التوجهات الغربية والإسلامية وتحليلها أو تفكيكها.

ثالثا: كان من ضمن الأدبيات التي حرص الباحث على الاطلاع عليها والمرتبطة في موضوع الدراسة مجموعة من البحوث والكتابات تناولات تأصيل علم الاجتماع الإسلامي من جانب معرفي أبستمولوجي، ويمكن أن نذكر منها كتاب: **"حول التأصيل الإسلامي"** لمؤلفه محمد قطب من مطبوعات دار الشروق ١٩٩٨م، وكتاب إبراهيم رجب **"التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية"** من مطبوعات عالم الكتب ١٩٩٦م، والدراسة التي أعدها الباحث مهورباشة عبدالحليم وقدمها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة سطيف في الجزائر وكانت بعنوان: **"التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية – مقاربة في إسلامية المعرفة."**

نوع الدراسة ومنهجها:

وظف الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي على عينة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في " الغربة " والاطلاع على الإسهامات العلمية لبعض العلماء المسلمين رحمهم الله، وبعض علماء وفلاسفة الاجتماع الغربيين، كما استخدم الباحث منهج المقارنة عبر توظيف (النموذج المعرفي) كأداة للمقارنة والوصول إلى أوجه التباين بين المنظور الغربي والتأصيل الإسلامي، بهدف التوصل إلى الفروقات التي يمكن توظيفها في النموذج المعرفي الإسلامي المقترح.

مجتمع الدراسة والعينة

اختار الباحث عينة قصدية من الأحاديث النبوية في " الغربة " والمنقولة في كتب الصحاح كنموذج للتناول الإسلامي لمفهوم الاغتراب، ويرى الباحث أنه غير معني بمسح كافة الأحاديث المروية في موضوع الغربة وترادفاتها في كتب السنة النبوية، وإنما

هي دراسة استقرائية في عينة من تناولات النص النبوية الكريمة للوصول لخصائص وصفة لمفهوم الاغتراب الإسلامي، ومن ثم التعميم بافتراضات توصلنا للمنظور الإسلامي لظاهرة الاغتراب الديني.

وتعد السنة النبوية على صاحبها أتم الصلاة وأزكى التسليم، المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام، وقد تناولت مفهوم الاغتراب بشكل مباشر عبر مرويات صُنفت من قبل علماء الحديث تحت باب حديث "الغربة" وشكلت إرثا معرفيا عند كثير من علماء المسلمين حول الغربة الدينية للإسلام، وسيأتي ذكره وتفصيله في الفصل القادم من هذه الدراسة إن شاء الله.

الفصل الثاني: الأصول الإسلامية للاغتراب الديني

أولاً: حديث الغربة طرقه وتخريجاته:

مدخل: من المهم إعادة التأكيد على اختلاف المفهومين الغربي والإسلامي للاغتراب الديني، حيث يعد اغتراب الإنسان في الحياة فكرة مركزية في النموذج المعرفي الإسلامي، فالآخرة لدى المسلم دار حساب وجزاء، والحياة دار امتحان وشقاء وعبور وليست دار استقرار، وهذا ركن أصيل من أركان الإيمان للمسلم، وقد جاءت آي القران الكريمة والصحيح من السنة النبوية المطهرة تؤكد على حتمية وأصل اغتراب الفرد في حياته قال تعالى على لسان مؤمن قوم فرعون: **(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) (غافر٣٩)** وفي صحيح البخاري من حديث عبدالله بن عمر– رضي الله عنه – قوله: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي **فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل،** وكان ابن عمر يقول إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.

هذا المفهوم للاغتراب بشكله الإيجابي جرى تناوله في القران الكريم والسنة النبوية المطهرة بشكل مباشر وغير مباشر، وقد سبق للباحث تعليل سبب التركيز على عينة قصدية من أحاديث الغربة واختيارها من مجتمع الدراسة عبر استقراء في حديث " **بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ**" والذي نُقل لنا مرويا بطرق عديدة؛ نتناولها في هذا التفصيل، حيث يرى الباحث أن هنالك ضرورة منهجية لتتبع طرق الحديث وتخريجاته؛ كأحد مراحل التثبت من النص وصحة نسبه للرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد أثبت الباحث المختص في علوم الحديث عبدالله بن يوسف الجديع في كتابه " **كشف اللثام عن طرق حديث غربة الإسلام**" صِحة الحديث الشريف : " بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ " بأكثر من عشرة طرق كلها صحيحة.

فقد نقل الحديث مرويا :

١. في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء" ونقله بذات اللفظ ابن ماجة ، وأبي عونة في مستخرجه.
٢. كما نقل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ولفظه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء" قال : قيل : ومن الغرباء؟ قال : " النزاع من القبائل". نقله بهذا اللفظ : الإمام الترمذي ، وابن ماجه ، والدارمي في مسنده.
٣. وروي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في مسلم والبيهقي عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ : " إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، وهو يأزر بين المسجدين كما تأزر الحية إلى جحرها" .
٤. كما نقل مرويا من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال صلى الله عليه وسلم : " إن الإسلام بدأ غريبا ، وإنه سيعود كما بدأ ، فطوبى للغرباء" قالوا ومن هم يا رسول الله؟ قال : " الذين يصلحون حين يفسد الناس". أخرجه الطحاوي في المشكل ، والبيهقي ، وابن الطبري ، والهروي.

وقد نُقل عن جملة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، منهم سعد بن أبي وقاص أخرجه أحمد في مسنده وأبو يعلى ، وعن عمر بن عوف المزني نقله الترمذي

والطبراني في الكبير، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وكذلك عن أنسى بن مالك وغيرهم كثر.

تناولات حديث الغربة في تراث بعض علماء المسلمين

يرى الباحث أن من إثراء أدبيات الدراسة قراءة في تناولات بعض علماء المسلمين لحديث الغربة، وقد اطلع الباحث على مجموعة من هذه التناولات، ويمكن طرح جزء من تلك التناولات من منطلق تحليلي نقدي، لنصل في النهاية لاستنباط خصائص تساعد على تكوين نموذج معرفي إسلامي لظاهرة الاغتراب الديني من منظور إسلامي.

تناول شيخ الإسلام ابن تيمية للغربة:

تناول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حديث الغربة بالشرح والتقريض بفصل ضُمِّن في الفتاوى المنسوبة للشيخ رحمه الله في الجزء الثامن عشر ص٢٩٠ تحت عنوان **(فصل في قول النبي صلى الله عليه وسلم بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ).**

وابن تيمية يؤكد في هذا الفصل حتمية ولزومية اغتراب المسلم والدين في هذه الحياة، إلا أن الشيخ له رؤية إيجابية لم يلمسها الباحث بوضوح عند غيره ممن تناولوا هذا الحديث النبوي؛ حيث تضمنت شروحاتهم نماذج تفسيرية زهدية تقدم الترك على الأخذ، يقول ابن تيمية في جانب النظرة الإيجابية في الحياة: **(لا بد أن يحصل للناس في الدنيا شر، ولله على عباده نعم، ولكن الشر الذي يصيب المسلم أقل، والنعم التي تصل إليه أكثر ... فالذي حصل للكفار من الهلاك كان أعظم بكثير، والذي كان يحصل للكفار من عز أو مال كان يحصل للمسلمين أكثر منه، حتى من الأجانب).** ثم يتطرق ابن تيمية لمظهرٍ يجده الباحث متجذرا في الحالة النفسية للاغتراب الإنساني

بشكلها العام، والذي أطلق عليه عالم الاجتماع النفسي الأمريكي ميلفن سيمان (١٩١٨م) في مزمع تصنيفه لأبعاد الاغتراب النفسي بعدا نفسيا اسماه: " فقدان المعنى" **meaning less** وهو شعور المغترب بعدم جدوى عمله في نظر من هم حوله، هذا الشعور السايكو/اجتماعي يعالجه ابن تيمية بمفهوم إسلامي هو " الاحتساب " يقول شيخ الإسلام: **(أن المؤمن يعمل لله، فإن أوذي احتسب أذاه على الله، وإن بذل سعياً أو مالاً، بذله لله، فاحتسب أجره على الله).** لينتقل ابن تيمية من مقام الاحتساب إلى مقام الصبر والتوكل، وهي ما يراه ابن تيمية – رحمه الله – سببا في تخفيف وعلاج الشعور "باللا معنى" **meaning less** عند المغترب، وهو الشعور المؤدي إلى "العزلة" **isolation** بحسب أبعاد الاغتراب الأربع لدى ميلفن سيمان.

يتعامل ابن تيمية مع غموض فكرة عودة الدين غريبا كما بدأ؛ وهل هي تعني أن الشعور بالغربة مرتبط في بداية الإسلام ونهايته فقط؟ فيعالج هذه الفكرة التي تبعث على الإحباط عبر تحليل تداولي متعال في الإيجابية؛ يؤكد فيه ابن تيمية أن المقصود هو غربة الدين في أمكنة وأزمنة ثم ظهوره في أمكنة وأزمنة أخرى قويا، وهو لا يشترط أن يكون ذلك في آخر الزمان، فيتكون بهذا الفهم عند ابن تيمية حالة تداولية من القوة والضعف ثم القوة مرة أخرى حيث يقول رحمه الله: **(إنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبا بينهم، ثم يظهر –يقصد الدين – كما كان في أول الأمر غريبا، ثم ظهر.. وهو لما بدأ غريبا، لا يُعرف ثم ظهر وعُرف؛ فكذلك يعود حتى لا يُعرف، ثم يظهر ويُعرف، فيقلُّ من يعرفه في أثناء الأمر كما كان من يعرفه أولاً).**.. ثم يكمل ابن تيمية نظرته الإيجابية بقوله رحمه الله: **(... فأما بقاء الإسلام غريبا ذليلاً في الأرض كلها قبل الساعة؛ فلا يكون هذا).**

هذه النظرة التداولية تؤكد لدى الباحث المنظور الإيجابي الذي لمسه عند ابن تيمية ؛ بأن الشعور بالاغتراب في الإسلام لا يعني الشعور بالقنوط و"عدم القوة" **powerlessness** بل يعني أن يصبر الفرد المسلم الذي يشعر بالغربة على قيمه ومبادئه ، وأن يواصل العمل على الإصلاح دون يأس.

وقد استعان ابن تيمية على صدق استنباطه هذا بمنهج تاريخي ، وذلك بالرجوع لمواقف تؤكد ما توصل له من المعنى التداولي في فكرة اغتراب الإسلام ؛ عبر إيراده قصة الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي – بحسب ابن تيمية – اظهر الله به الإسلام بعد ضعف وغربة ، ثم يستدل بعد قصة الخليفة عمر بن عبدالعزيز بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : **(إن الله يبعث لهذه الأمة في رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها).**

ويختم ابن تيمية بتفصيل حال الردة والتنازل عن الدين الموجبة لحال الغربة عند بعض أهله ، وأنها ربما لا تكون بترك الدين بالجملة ، إنما قد تكون بانتفاء العلم والأيمان رغم حفظ القران ، وفي هذا معنى يوجب الاهتمام في فكر ابن تيمية حول أن العلم ليس حفظ المتون والقران وإنما هو الفهم والوعي المنتج للأيمان الحقيقي ، وابن تيمية يضيف لهذه الفئة فئة أخرى يصفهم بمن عندهم إيمان بلا علم أو قران وهو إيمان العوام ، وعند كل الفئتين التين ذكرهما ابن تيمية سببا في فقد المعيار الذي يحكم فيه الفرد واقعه ، ويساعده على فهم الموقف فهما سليما يعينه على حفظه دينه في أزمنة الغربة والاغتراب ، ليختم رحمه الله بقوله : **(لكن أكثر ما نجد الردة فيمن عنده قران بلا علم أو إيمان ، أو من عنده إيمان بلا علم وقرآن ، فأما من أوتي القران والإيمان ؛ فحصل فيه العلم ، فهذا لا يرفع من صدره والله أعلم).**

تناول الإمام الشاطبي للغربة

نحى الإمام الشاطبي في تناوله للاغتراب منحا ذاتيا عبر توظيفه حديث " بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ " في معركته الشخصية ضد من خالفوه وحاربوه من علماء عصره، فجعل حديثه في الاغتراب مقدمة لكتابه الموسوم بـ" **الاعتصام** " مؤكدا أن ما وجده من علماء زمانه من رفض وتسلط وعداوات إنما أتت بعد توجهه في الخطابة والإمامة، وتنكره لما خالط الوسط العلمي في زمانه من بدع وابتعاد عن السنن، ليجعل الشاطبي هذا المدخل مدخلا لمنظوره حول اغتراب الدين، وبأن الدين في اغتراب واختلال وضعف متدرج بتدرج الزمان، يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : **(وجدت نفسي غريبا في جمهور أهل الوقت، لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد .. ولم يكن ذلك بدعا في الأزمنة المتقدمة، فكيف في زماننا هذا؟ فقد روي عن السلف الصالح من التنبيه على ذلك كثير: كما روي عن أبي الدرداء: أنه قال: (لو خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم ؛ ما عرف شيئا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة) قال الأوزاعي: (فكيف لو كان اليوم؟) قال عيسى بن يونس: (فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان؟).** ثم يقول رحمه الله مختتما هذه الفكرة **(إلى ما أشبه هذا من الأثار الدالة على أن المحدثات تدخل في المشروعات، وأن ذلك قد كان قبل زماننا، وإنما تتكاثر على توالي الدهور إلى الآن)** فكان اغتراب الدين من هذا الباب وبهذا الفهم لدى الإمام الشاطبي رحمه الله من تكاثر البدع واضمحلال السنن، مستدلاً بمأثور نقله عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما **(ما يأتي على الناس من عام ؛ إلا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا فيه سنة، حتى تحيا البدع، وتموت السنن).**

وفي هذا التناول يشدد الإمام الشاطبي على حتمية فساد الزمان وقدر اغتراب الدين، والذي لا يجب أن يصد الصادقين عن عزم الإصلاح والأمر بالمعروف، والصبر على الأذى، الذي لن يقف على زمان الإمام الشاطبي رحمه الله ؛ وإنما هو

دائم ما دامت البدعة، ومستمر ما استمر في الناس هوان السنة، يقول الشاطبي رحمه الله: **(واخرج ابن وضاح في كتاب " القطعان" حديث الأوزاعي أنه بلغه عن الحسن أنه قال: " لن يزال لله نصحاء في الأرض من عباده، يعرضون أعمال العباد على كتاب الله، فإذا وافقوه حمد الله، وإذا خالفوه عرفوا بكتاب الله ضلالة من ضل وهدى من اهتدى فأولئك خلفاء الله).** وهنا يؤكد الشاطبي رحمه الله على مفهوم لمسه الباحث في تناوله لرؤية الإمام ابن تيمية رحمهما الله التي تم استعراضها آنفا، آلا وهو التأكيد على ثبات المعايير والقيم، فالعلم بالوحي والسنة بالنسبة للإمامين -رحمهما الله - حجر الأساس في ثبات الرؤية وتماسك المؤمن المغترب في حياته وإصلاحه وعمله.

تناول الإمام ابن رجب الحنبلي للاغتراب:

تناول الحافظ ابن رجب - رحمه الله - للاغتراب الديني في كتابه **كشف الكربة في وصف أهل الغربة** مرتكزا هو الآخر على حتمية الاغتراب، لكن تناوله كان زهديًّا مفرطا في التسليم وترك ملذات الحياة من شبهات وشهوات، حيث يراهما سببا في اغتراب الإنسان عن حياته ومقره الأصلي وهي الدار الآخرة، وقد كانت ثنائية " الشبهات والشهوات" محورا لنظرة ابن رجب للاغتراب دعته لإنتاج فلسفة صوفية زهدية تقوم على الترك والتسليم.

ويرى الفقيه الحنبلي رحمه الله أنه مع توسع الفتوحات الإسلامية، وقوة شوكة المؤمنين، وإقبال الدنيا من كل صوب، أصبح الدين ينزاح عن بؤرة الاهتمام والانشغال، وظهرت مع اختلاط الشعوب والمذاهب الفرق والطوائف، وهذا ما اسماه ابن رجب (فتنة الشبهات) أما (فتن الشهوات) فهي مرتبطة بتحسن الوضع الاقتصادي للخلافة الإسلامية، وجريان المال بيد الجهال، فالاغتراب عند الإمام ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – هو غرق في الملذات، والهوس في التكاثر والازدياد من

نعيم الدنيا، وهو سبب في الشبهات وما تخلقه من عداوات بين الأخوة في الدين. يقول ابن رجب رحمه الله: **(فلم يتخذوا الدنيا – يقصد الغرباء – لهم وطننا ولا مسكنا، وإنما اتخذوها ممرا ولم يجعلوها مقرا، وجميع الكتب والرسل أوصت بهذا ... فالمؤمن في الدنيا كالغريب المجتاز ببلده غير مستوطن فيها، فهو يشتاق إلى بلده وهمه الرجوع والتزود بما يوصله إلى وطنه ولا ينافس أهل ذلك البلد المستوطنين فيه عزهم، ولا يجزع مما أصابه عندهم من الذل).**

الفصل الثالث: الاغتراب الديني في المنظور الغربي

مدخل:

يمكن للمتتبع أن يلمس لمفهوم الاغتراب تمظهرا منذ القدم؛ عبر تناوله في ديانات وكتب سماوية مختلفة، إلا أن مصطلح الاغتراب في الفكر الغربي لقي اهتماما وحضورا فلسفيا ونظريا في نهاية القرن السابع عشر، وذلك مع طرحه أولا كمفهوم ذي طابع إيجابي من قبل فلاسفة العقد الاجتماعي منذ توماس هوبز وجون لوك، والذين تعاملوا مع الاغتراب كمفهوم يتنازل فيه الفرد عن جزء من حريته لصالح المصلحة العامة وصالح المجتمع، ملغيا فردانيته لصالح قانون ودستور الدولة.

أما حينما نأتي للاغتراب كبنية فكرية متماسكة فجيب أن ينسب مثل هذا الجهد لفيلسوف الاغتراب الفيلسوف الألماني المثالي " فريدرتش هيجل" حيث بدأ معه المفهوم يأخذ اهتماما وعناية كبيرة في الفكر والتراث الغربي، ومن خلال هيجل شيد طلابه من الهيجاليين الشبان خطا فكريا تطويريا للاغتراب الديني بدأ مع تلميذه " لدودفيج فيورباخ".

ويرى الباحث أن من المهم الإشارة لملاحظة جوهريا في التراث الغربي في الاغتراب، والتي كانت وما تزال مِظنة زلل وسوء فهم عند كثير من الباحثين في العلوم الاجتماعية، آلا وهي التعامل مع الفكر الغربي كنسق فكري واحد مغلق ومتطابق تماما من مختلف التيارات الفكرية والفلسفية، وهذا غير دقيق، إذ أن الخلفية الفلسفية التي يتكأ عليه علماء غرب كهيجل وفيورباخ وماركس ليست هي ذاتها التي يتبناها – مثلاً – التنويريون من أصحاب النزعة الوضعية العقلانية منذ ديكارت، ولذا كان من الواجب أن نطرح في دراستنا للتراث النظري الغربي في الاغتراب نماذج مختلفة تمثل نزعات متباينة، ولذا رأى الباحث أن من الواجب تقديم عرض لفلسفة عالم من

علماء الاجتماع الوضعيين هو إيميل دوركايم، والتطوير الذي حصل في دراسته حول الانتحار "اللامعياري" من قبل عالم الاجتماع الأمريكي روبيرت ميرتون للوصول إلى تصور بنائي وظيفي للاغتراب في الفكر الغربي يقابل المنظور الصراعي الجدلي عند هيجل/فيورباخ.

الاغتراب الديني عند هيجل

كان للنزعة البروتستانتي عند لوثر في المسيحية دورا مؤثرا في تشكل فكرة الاغتراب لدى الفيلسوف الألماني هيجل، فاللوثرية البروتستانتية تقدم الديانة المسيحية بشكلها الربوبي، والذي يرى أن العلاقة بين العبد والرب يجب أن تكون مباشرة دون واسطة كهنوتية مثلما تدعي الكاثوليكية، وقد رأى هيجل في الفكرة التي دعت لها الكاثوليكية من خطيئة الإنسان الأولى وهبوطه من الجنة ثم اللجوء للكهنوت في طلب المغفرة وبذل العبادات والنسك بحثا عن المغفرة، والخوف من عقاب الآخرة وغضب الرب، كل تلك السلوكيات الدينية رأى فيها هيجل ربطا للدين بالسماء والميتافيزيقا اللاهوتية بدلاً من الحياة والسعادة والحب، كما اعتبر هيجل مسيحية الكهنوت والطبقية الكنسية تدميرا للشعور الحي في قلب المؤمن، ولذا حارب فكرة الدين الذي يؤخذ من الكتب كعقائد جامدة (دين اللاهوت) باحثا عن دين للحياة كالديانات اليونانية الاحتفالية والفرائحية بحسب ما يراه.

لقد سعى هيجل لتطوير فكرة الدين محاولاً إخراجه من موضوعية الكثلكة واللاهوت الكتابي الجامدة إلى تجليات الروح المطلق، التي يرى فيها تطورا للوعي الإنساني منذ مراحل الدين الأولية، مرورا بتطور الوعي الذاتي في الديانات المثالية كالمسيحية ولإسلام واليهودية، ثم بعد أن يمر الوعي بفكرة الدين الطبيعي ونقيضها

دين اللاهوت ؛ حينها يجزم فيلسوف الجدل أن الدين سيصل إلى وعي الروح المطلق والفلسفة كناتج ثالث لجدليته الهيجلية.

الاغتراب الديني عند ليدفيج فيورباخ

انتقد فيورباخ وهو أحد اهم طلبة هيجل من الهيجليين الشبان، انتقد بشدة لاهوت أستاذه هيجل الذي حاول التوفيق بين الدين البروتستانتي وبين الفلسفة، حيث يرى فيورباخ أن هيجل لم يفعل شيء سواء أنه شرَّع للدين الميتافيزيقي من خلال فكرة أن "الواقعي" ناتج عن "المقدس" ولذا قرر فيورباخ أن يثور على فكر استاذه هيجل فلا يجعل الدين هو البداية، بل ينطلق من الفلسفة التي يعدها هي الدين عبر أفعالها التأملية ؛ لتحل محل الدين اللاهوتي الميتافيزيقي، مؤكدا على فكرة رئيسية وهي أن الرب مجرد فكر وهمية من ابتكار الإنسان البدائي، ثم شيء فشيء بدأ يخضع له، ويسلم له نفسه، ويخشاه إلى أن اغترب روحيا – بحسب فيورباخ – أمام رب غير واقعي خلقه الإنسان ثيولوجيا عبر الوهم، ومن هنا جاءت فكرة أن يكون الدين لدى فيورباخ دينا إنسانيا ينطلق من الإنساني والواقعي ؛ بدلاً من الأوهام، محاولاً نقل الدين من الثيولوجيا الأسطورية إلى الواقع العقلي التأملي عبر الأنثروبولوجيا.

يقول فيورباخ في كتابه أصل الدين: (٠٠ الحياة والطبيعة غير قابلة للتفسير وليكن كذلك ؛ ولكن هذا لا يجعلنا نجد مبررا في أن نستمد منها النتائج الخرافية التي يستمدها اللاهوت بسبب قصور المعرفة الإنسانية..) ثم يضيف (إن عدم فهمنا للطبيعة لا يسوغ لنا أن نفسرها بما يصعب تفسيره، بافتراضنا كائنات متخيلة وأن نخدع أنفسنا والآخرين بتفسير لا يفسر شيئا).

فيورباخ يشدد على فكرة في النموذج المعرفي الغربي تتلخص في أن اغتراب الإنسان دينيا جاء من منح الإنسان نفسه للطبيعة عبر تصور وهمي للرب، ومجسدا

الطبيعة كإله أسطوري، ولذا فالبشر يسببون لأنفسهم التعاسة عبر الإيمان بدين اللاهوت، وهذا معنى أنثروبولوجي للدين جاء منذ القرن الثامن عشر مع دراسات ميدانية أنثروبولوجي لشكل الحياة البدائية وأصل الدين؛ كنتيجة للنزعة التطورية والصراعية في الفكر الغربي الذي لا يقيم للوحي أي أثر أو قيمة في المعرفة والاستدلال.

ينقل فيورباخ نصا لحوار بين الإسكندر الأكبر والمصريين، يحاورهم فيه حول العجل الذي يعبده المصريين فيما يأكله الإسكندر واليونانيون، وهذا الحوار يجعل منه فيورباخ مدخلا لشرح فكرته حول غربة الإنسان الشرقي الذي سلم نفسه لدين اللاهوت فيما الإنسان الغربي بدأ يتحرر من هذا القيد – بسحب فيورباخ –

يقول في كتابه أصل الدين: **(لهذا السبب بالذات يبدو الإنسان هناك – يقصد في الشرق – غريبا بعيدا عن نفسه، بعيدا عن قدره، أما هنا – يقصد الغرب – فإن الإنسان متعقل ومركز على نفسه وواع لها، هنالك في الشرق يقلل الإنسان من قيمة نفسه إلى مستوى الحيوان -كما يقول هيرودوت - كي يثبت ولاءه الديني أو يضعه أمام الطبيعة، أما هنا فيرتفع الإنسان بدافع وعيه وقدرته وكرامته إلى مرتبة الآلهة، وهذا دليل واضح أنه يتساوى بالألهة السماوية)**.

هنا نحن أمام جدلية بدأت من هيجل في نظرته للدين اللاهوتي بأنه دين الخوف، والكهنوت، وبيع الإنسان لإيمانه عبر النسك الكهنوتي الكاثوليكي، وشعور الخطيئة والاعتراف والخوف من العقاب، والذي يجب – بحسب هيجل – أن يتحول إلى دين المتعة، والاحتفال، واللذة المتعالية، كما في دين الفلسفة اليونانية، دين التعالي على كل السلوكيات المادية الجامدة والتي تحول المؤمن إلى "شيء" والرب إلى مجرد "موضوع".

هذه النزعة الجدلية أنتجت فلسفة دينية لدى تلميذه فيورباخ ترفض الوصول لواقع الإيمان من وهم الروح المطلق عند هيجل، حيث يرى فيورباخ أن يتحرر الإنسان من أوهامه اللاهوتية الثيولوجية التي صنعها عقل الإنسان البدائي ليواجه مصاعب الطبيعة بفكرة الإله، والذي بدأ يتحول شيء فشيء إلى شعور خوف وخضوع واغتراب، وهنا يطالب فيورباخ بالعودة إلى الفلسفة كمنطلق لدين إنساني يبدأ من الإنسان وينتهي إليه، دين ينطلق من الواقع إلى الواقع رافضا كل أوهام اللاهوت.

هذه الفلسفة عند هيجل/فيورباخ تحولت إلى منظور جدلي تكون في رؤية ماركس للاغتراب الديني في كتابه رأس المال، والذي – بحسب ماركس - تسببت به البروتستانتية عبر إنتاجها للبرجوازية المستغلة واغتراب العامل عن إنتاجه، كما أن المنظور الهيجلي الذي طوره فيورباخ للدين كان أيضا جدلاً منتجا للعدمية التي توصل لها فيلسوف العدمية نيتشه، ومنها تنحى اللاهوت مع أي نظام شمولي للحكم كمعيار موضوعي، بالإضافة إلى نقد عقل الحداثة الموضوعي عند هيجل ومريديه في اليسار الهيجلي، انتج مرحلة من " الا معيارية " العدمية التي استحالت إلى شكل من الاغتراب المادي تلمسه رفقائهم في مدرسة فرانكفورت النقدية مطلع القرن العشرين.

ولكن السؤال الذي يمكن طرحه هنا، هل ما حصل في التيار الهيجلي والماركسي واجهه رفقائهم في التيار الحداثي العقلاني أيضا؟

هنا سنتناول قراءة في منظور عالمين اجتماعيين ممن طورا في النزعة البنائية الوظيفية هما إميل دوركايم وعالم الاجتماع الأمريكي روبرت ميرتون.

الاغتراب الديني عند إميل دوركايم

يعد عالم الاجتماع الفرنسي إيميل دوركايم المتوفى سنة ١٩١٧م أحد أباء علم الاجتماع المؤسسين، ويعود له الفضل في تكوين واحدة من المدارس الكبرى في النظرية الاجتماعية وهي البنائية الوظيفية، دوركايم ينتمي معرفيا للنزعة الوضعية في العلوم التي أسسها عالم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت مع أستاذه سانت سيمون، والتي ترى أن علم الاجتماع يجب أن يدرس مثلما تدرس العلوم الوضعية في الرياضيات والفيزياء، وقد ركز إيميل دوركايم في دراسته على الظاهرة الاجتماعية واعتبرها " شيء " قابل للدراسة كحقيقة مادية وضعية مجردة لا تخالطها الآراء المسبقة للدراس ؛ وهو الأمر الذي سيساعد الباحث على التخلص من أي حكم جاهز ومسبق على الظاهرة قيد الدراسة.

ما علاقة كل ما ذكرنا من تاريخ دوركايم بمفهوم الاغتراب لديه؟

يرى دوركايم أن أي مجتمع هو بناء عضوي مثله مثل الجسد، يتكون من أجزاء لها وظائف لتحقيق حاجات الإنسان ومتطلباته، فمثلاً المدرسة عبارة عن بناء عضوي في المجتمع يوجدها المجتمع لتلبية حاجاته للتعلم ؛ فهذه وظيفة المدرسة في جسد المجتمع، وبتالي يظهر لنا من خلال هذه العملية الديناميكية بين البناء العضوي في جسد المجتمع والحاجة والوظيفة الناتجة عنه، يظهر لنا من كل هذه العملية ما اسماه دوركايم **" الظاهرة الاجتماعية".**

والظاهرة الاجتماعية لدى دوركايم هي بنية تقع خارج شعور الفرد وتمارس عليه سلطة فلا يتحكم بها مطلقا، ولها خاصية الانتقال من جيل إلى جيل، كما أنه من الصعوبة أن تتغير إلا على مدة زمنية طويلة نسبيا، ودروكايم يفرق بين نمطين من الظواهر الاجتماعية هما الظواهر الاجتماعية المادية، ويقصد بها أي تمظهرات محسوسة

في المجتمع كالمدرسة، والمستشفى، والمسجد، والعائلة، والدولة الخ.. وأما الظواهر الاجتماعية الغير مادية فهي التي تعنينا في موضوع الاغتراب الديني، وهي عبارة عن القيم والمبادئ الأخلاقية، والتعاليم الدينية، وغيرها من البنى العقلية غير المحسوسة، والتي لها وظيفة غير مادية تسهم بضبط وتكامل وانسجام البناء الاجتماعي.

إن البناء الديني الذي يسهم في إنتاج نسق من القيم والأعراف والتقاليد التي تساعد على انسجام المجتمع سيخلق معيارا ينتظم به أفراد المجتمع في اختيار وتحقيق رغباتهم وحاجاتهم، وحينما يحدث عملية من عدم الانتظام والانسجام بين المعايير والقواعد الضابطة للبناء الاجتماعي وأسلوب الحياة في المجتمع، يحدث ما يطلق عليه دوركايم **" اللا معيارية "** أي فقدان المعيار والضابط، وبالنسبة لدوركايم فإن الفرد الذي يعاني من الاغتراب هو من لا يخضع للمعايير من أي نوع كانت.

وبالنسبة لدوركايم ؛ فإن تحول المجتمع من نموذج ضبط ديني إلى شكل أخر جديد من الضبط القانوني الحديث، سيغير بالنتيجة من معايير الحكم والقياس على الظواهر الاجتماعية، وسيؤدي ذلك إلى فقدان البناء الديني لوظيفة رئيسية كان يؤديها في المجتمع، وبالتالي سيودي بالمنتمين للمعاير الدينية إلى حالة من الاغتراب في مجتمعاتهم.

يرى الباحث أن هنالك حاجة موضوعية ومنهجية لقراءة تحليلية الظاهرة الاغتراب الديني في أوربا من خلال المنظور الوظيفي عند دوركايم، حيث أن ازدهار المعرفة العلمية الوضعية خلال القرن السابع عشر جعل من العلم البنية الأكمل والأكثر ثقة في العقل الغربي، في ذلك الوقت كان العلم هو النموذج الأكثر اتقانا وصرامة منهجية كأسلوب معرفة وحياة في شتا المعارف الإنسانية، وليس في المجال التجريبي العلمي فقط، وخصوصا في ظل بناء معرفي لاهوتي يعيش أضعف أيامه، حيث كان

يتلقى العديد من الضربات بدأت في الصراع الكاثوليكي البروتستانتي، ثم تلاها الهجرات القادمة من القسطنطينية لتراث فلسفي يوناني عقلي خلق موجة من النقد الفلسفي للاهوت المسيحي من قبل فلاسفة عصر الأنوار.

ولذا و تأثرا بكل ما حدث في ذلك الوقت اتجه الدين للتوسل بصرامة المنهج العلمي الوضعي الذي أنتجته جهود كوبرنيكوس، ونيوتن، وكابلر وغيرهم، فأصبح الدين اللاهوتي الذي كان يحتل في القرون الوسطى مكانة اجتماعية مرموقة ومؤثرة؛ أصبح في عصر الأنوار يتنحى نهو الهامش مع ارتفاع في مكانة النسق العلمي، وهذا – بحسب الباحث – ما كان سببا في ظهور النزعات العلمانية، أي أن الباحث يرى أن العلمانية لم تكن جهدا إيديولوجيا موجها ومركزا لتحطيم البنى الدينية؛ بل ما حدث هو نتيجة صراعية جعلت الدين في مكانة هامشية على المستوى العلمي والسياسي؛ وبالتالي كان من الطبيعي أن يختفي من التأثير في المجتمع، ويبقى مجرد بناء صامت على المستوى الوظيفي معرفيا وسياسيا، ولكنه كان صامدا على المستوى الأخلاقي.

هذا التباين بين صمت الدين وظيفيا في النسق المعرفي والسياسي، وبين الصمود القيمي والأخلاقي للدين؛ خلق حالة من الاغتراب لدى المجتمع الأوربي، بدأ يلفت انتباه علماء وفلاسفة مطلع القرن الثامن عشر؛ لتظهر في ذلك الوقت ثورة علمية في مجال اللاهوت والفلسفة الدينية ودراسات الاغتراب الديني وتأثيراته، خصوصا في ظل استغلال الدين من قبل الأباطرة والسياسيين كوظيفة للسيطرة وممارسة القهر على الطبقات المسحوقة في النظم الشمولية؛ تحت الاتحاد الشهير بين الكنسية والملكيات الإمبراطورية، هذا التحليل التفسيري للصراع الوظيفي بين العلم والدين يراه الباحث ضروريا في تكوين النموذج المعرفي الغربي، وما يتشمل عليه من تحيزات معرفية كامنة، وأحدها فكرة مأسسة الدين واستغلاله لأغراض سياسية مما يشكل نموذجا أخرا من

الاغتراب الديني، حتى في النموذج الإسلامي التركيبي الذي ستتم مناقشته في الفصل الأخير من هذه الدراسة " وهو الدين السياسي".

الاغتراب الديني عند روبرت ميرتون

ينتمي روبرت ميرتون لأحد أهم المدارس في علم الاجتماع، فهو امتداد علمي لمنظري المدرسة البنائية والوظيفية التي أسسها إميل دوركايم، ولد ميرتون في ١٩١٠م في فيلادلفيا، له أطروحاته وإسهاماتها العلمية التي تسمح له أن يتربع على كرسي واحد من أهم منظري القرن العشرين في العلوم الاجتماعية.

أحد اهم إسهامات روبرت ميرتون هو تناوله لمفهوم الوظيفة الكامنة في الظاهرة الاجتماعية، ويقصد ميرتون بالوظائف الكامنة هو أن الظاهرة الاجتماعية – كما تبين في الفقرة السابقة – تتكون من بناء اجتماعي أوجده المجتمع لتلبية حاجات ورغبات أفراده، هذه الوظائف كانت منذ دوركايم وحتى عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز – أستاذ ميروتن – كان يُنظر لها على أنها وظائف ظاهرة ولها دور إيجابي في حفظ النسق وانسجام البناء الاجتماعي.

ولكن روبرت ميرتون من خلال دراسته لدور الدين في الحياة الاجتماعية، تحدث لأول مرة عن الوظائف المستترة والغير إيجابية أحيانا، فالملابس –مثلاً - لها وظيفة ظاهرة لتغطية الجسم وحفظه من تقلبات الطقس، ولكن الملابس تلبي أيضا وظائف مستترة تتعلق بالتمايز والمكانة الاجتماعية.

أما فيما يتعلق بالاغتراب الديني، فقد كان لميرتون إسهاماته المهمة في الأنماط الوظيفية، ويقصد بها العلاقة بين الأهداف الثقافية للمجتمع، وبين الوسائل التي تتيح للفرد تحقيق تلك الأهداف، حيث يرى روبرت ميرتون أن المجتمعات التي تعيش

انسجاما عاليا يلاحظ عليها تناغم كبير بين الأهداف التي تحقق للأفراد الحياة الكريمة، وبين توفر وسهولة الوصول إلى الوسائل التي تساعد على تحقيق الأهداف.

ولذا من الممكن أن ينتج عن اختلال التناغم بين الأهداف ومشروعية الوسائل نوع من (اللا معيارية) والتي تؤدي إلى أربعة أنماط من الاستجابة السلبية لدى الأفراد وهي:

نمط الأبداع والابتكار: وهو يعني أن فئة من المجتمع تقبل الأهداف التي يحددها المجتمع للنجاح لكنها تعاني بسبب ندرة الوسائل أو صعوبة الوصول إليها لتحقيق تلك الأهداف، وبالتالي تقوم هذه الفئة بإبداع وابتكار طرق غير مشروعة لتحقيق أهدافهم والانسجام مع متطلبات المجتمع.

نمط الطقوسية: يتميز هذا النوع بالالتزام بالبحث عن الوسائل المشروعة والانضباط بمعايير المجتمع لتحقيق مستوى منخفض من تحقيق الطموح والنجاح والاستمرار بهذا المستوى دون أي محاولة لتحسينه رغم أنه لا يحقق له اكتفاءه.

نمط الانسحابية: وهو النمط الاغترابي الذي قدمه ميرتون كنموذج للاغتراب الإنساني في أبحاثه، وهو نمط من التكيف يلجأ فيه الأفراد للتخلي عن الأهداف التي يضعها المجتمع للحياة المنسجمة وكذلك التخلي عن الوسائل لتحقيق هذا النجاح مما يخلق أفرادا منعزلين.

نمط التمرد: يضيف ميرتون نمطا من التكيف لا يكتفي فيه الأفراد برفض أهداف ووسائل المجتمع والانعزال كما في النمط الانسحابي، بل يصل بهم الأمر إلى السعي لاستبدال البناء الاجتماعي ببناء آخر يضم معايير ثقافية مختلفة للنجاح وفرص للتحقق.

أما الاستجابة الإيجابية فهي نمط الامتثال حيث تتوافق الأهداف مع توفر وسائل تحقيقها مما يخلق حياة كريمة ومنسجمة لدى أفراد المجتمع.

الفصل الرابع :

النموذج المعرفي الـ سوسيو/إسلامي لمفهوم الاغتراب الديني.. التأصيل والمقترح

تلكأ الباحث في تضمين هذا الفرض ضمن فروض الدراسة ومحاولة الإجابة عليه، نظرا لصعوبة المهمة وإشكاليتها، ووجه الصعوبة يكمن في تداخل أجزاء هذا الافتراض في عدة اختصاصات ما زالت تجد الكثير من الاختلاف والجدل بين منظري علم الاجتماع المسلمين منذ أواخر السبعينيات الميلادية.

وما جرَّأ الباحث على تضمين هذا الفصل في الدراسة اقتناعه بأن الظاهرة الاجتماعية تركيبية بالضرورة، وهذا على العكس من الظاهرة العلمية المادية الوضعية ذات الخصائص المعيارية التي تتسم بالثبات والموضوعية، وعليه رأى الباحث أن فكرة تأسيس إبستمولوجيا وتأصيل إسلامي ربما تكون غير واردة وتلقى الكثير من الإشكاليات المنهجية، إلا أنه أيضا ومن خلال ما اطلع عليه الباحث من قراءات نظرية نقدية ساهم بها باحثون عرب وغربيون فإن هنالك - بالمقابل - صعوبات نظرية ما زالت قائمة بخصوص الوصول إلى أبستمولوجيا غربية في دراسة الظواهر الاجتماعية.

وعليه فالحال في النظرية الغربية الاجتماعية ليس بهذه المثالية التي نتخيلها بحسب رأي الباحث، والإشكالية في المقاربات الغربية وغير الغربية ليست في النموذج الإدراكي وإنما في النموذج المعرفي، أي أن القضية قضية منهجية علمية للوصول لحقيقة تركيبية ونسبية ومعقدة تتميز بها العلوم الإنسانية. ولذا من السهولة ملاحظة التنقلات التي أصابت النظرية الاجتماعية الغربية وتباين النظر إليها بحسب النموذج المعرفي "**paradigm**" من منظري البنائية الوضعية والوظيفية البنائية، قبل أن تفككها الدراسات الخاصة بالفعل الاجتماعي العقلاني ونظريات التفاعلية الرمزية عند ماكس فيبر، ثم كانت إسهامات النظرية النقدية ومدارس ما بعد الحداثة ومن جاء بعدهم من

التفكيكيين حتى ميشيل فوكو ؛ ليظهروا عيوب وإشكاليات النموذج المعرفي الغربي في العلوم الإنسانية ، ثم عودة مرة أخرى وبروز للبنيويين والوظيفيين الجدد ، ثم جدل كبير بين الفعل الفردي والجمعي عند ريمون بودان ، والمدارس النفسو/ اجتماعية ، ودخول لمدارس جديدة بنظريات جديدة ، وإلى وقتنا الحاضر ما يزال العقل العلمي الغربي يتفتق على نقد ونقاشات وتجريبيات تنظيرية معرفية ، ولم تستكن النظرية الاجتماعية الغربية بعد ولم تلتقط أنفاسها ، مقابل ثبات شبه مطلق في المنهجية.

هذا التفكيك النقدي " للنظرية الاجتماعية الغربية" يراه الباحث شيء إيجابيا ، ومشجعا لطرح مزيدا من الأطر النظرية والمقترحات والنقود المعرفية ، والتي قد يجد فيها القارئ والباحث المتخصص شيء من منطق أو معقولية ، وقد لا يجد فيها أي قيمة ، لكنها تعد جهدا بحثيا رأى الباحث أن يقدمه وأن يسهم بالقليل في جانب يظن أن الإسهام فيه مما يفرضه عليه معياره الذاتي القيمي واهتمامه المعرفي في فروع علم الاجتماع الثقافي والمعرفي كباحث اجتماعي.

لقد كان من الواجب – بحسب الباحث - تحرير هذا المدخل ليكون مقدمة لآخر فصول هذا الجهد المتواضع ، والذي قد يكون هذا الفصل أهم فصوله ، إذ أن ما تقدم من فصول رغم أهميته واشتماله على نقود ومقترحات أصيلة للباحث ؛ إلا أنها كانت في معظمها تفكيرا فيما تركه العقل الإنساني سابقا ، أما ما هو قادم في هذا الفصل فهو جانب لا يتوافر عليه الجهد العلمي والبحثي في موضوع الاغتراب الديني من المنظور الإسلامي ، بل هو اساهم أصيل ومحاولة للوصول إلى إطار نظري توصل إليه الباحث عبر منهج استقرائي في صحيح السنة النبوية والتراث العلمي الإسلامي ، يمكن من خلاله ضبط دراسات الاغتراب الديني من وجهة نظر إسلامية ، وسيتم ذلك عبر اقتراح الباحث لفروض لا تشملها المقاربات والنظريات الغربية التي تعرض لجزء

منها، وقد توصل لها الباحث من فهم تركيبي وقراءات تحليلية في التراث الإسلامي لحديث النبي صلى الله عليه وسلم في الغربة، ولكنها في نفس الوقت لا ترفض ما يقدمه العقل الإنساني من جهود سابقة، وربما يجد هذا الجهد من يكمله، أو حتى يكون سببا في لفت النظر لمشكلة الدراسة فتستكمل بمن هم أقدر وارسخ علما ومنهجية من الباحث.

(النموذج المعرفي) كأداة مقارنة:

يشكل مفهوم النموذج المعرفي **"The Paradigm"** الذي نحته الفيلسوف والفزيائي توماس كوهن في ستينيات القرن الماضي ما يمكن تسميته هروبا من نمط التفكير المحدود برؤية ثابته لظاهرة معينة؛ إلى قالب نظري جديد يمكن من خلاله صياغة نظريات وقوانين جديدة.

ويمكن الاستشهاد ببعض الأمثلة للتوضيح: فنظرية بطليموس للكون والتي كانت تقول بمركزية الأرض استمرت لقرون قبل أن يتم نقضها بالثورة الكوبرنيكية لعالم الفلك البولندي كوبرنيكوس حول مركزية الشمس، وكذلك فيزياء نيوتن الكلاسيكية والتي كانت ثورة علمية غيرت الكثير وقلبت الحياة العلمية والإنسانية رأسا على عقب، قبل أن يتم نقضها بثورة الفيزياء النسبية لآينشتاين، ومثلها الثورة العلمية لدى عالم البيولوجيا تشارز دارون في الانتخاب الطبيعي والتي غيرت وجه العالم العلمي.

كل تلك الثورات العلمية كانت نتيجة تبدل في النموذج المعرفي، والانتقال من نموذج كان يظن أصحابه أنه متماسك ومتين ولا يقبل الدحض إلى نموذج ثوري جديد كما اسماه كوهين.

وإن كان للحضارة الغربية نموذجها المعرفي فهو ذلك النموذج الذي تطور عبر قرون منذ اليونان القديمة، هذا النموذج قائم في بدايته على فكرة واحدية المادة لدى فلاسفة الطبيعة اليونانيين، فالإنسان جزء من هذه المادة للإجابة على الأسئلة الوجودية الكبرى: من أين جاء الأنسان؟ وماذا يعمل على هذه البسيطة؟ وما الذي سيحصل له بعد موته، فهو – مثلاً - مجموعة من الذرات بحسب ما يراه الفيلسوف أبيقور الذي حسم مفهوما الخير والشر بالسعادة والألم، وبالتالي فاللذة والبحث عنها هي معيار الحياة السعيدة، وقد رأى أبيقور أن الموت فناء لا يجب أن يشكل لنا رهبة، فالآلهة لا تكافئ أو تعاقب.

هذا التلاحم " العلماني " الذي جاءت به الفلسفة اليونانية مع الطبيعة في بدايات النموذج الغربي كان يواجه تيارا دينيا يقدس الآلة يونانية الشعبية، وكانت تشكل زخما أسطوريا تحول مع دخول المسيحية إلى أوربا ليكون بمثابة ثيولوجيا قاهرة ومتسلطة جعلت الإنسان كائن خانعة مستسلما للطبيعة وتقلباتها وأمراضها وعللها، ثم تحولت مع فلاسفة عصر النهضة إلى تعظيم لمكانة الإنسان وعودة لمعين الكلاسيكيات اليونانية الفلسفية، ليحل الإنسان في الطبيعة مرة أخرى، ويبدأ مع تطور العلوم نموذجا معرفيا غربيا حلوليا ماديا يجعل من الإنسان جزء من حالة تطورية داروينية للطبيعة وابن لها، ومع تطور العلم باتت الوضعية المادية تتعامل مع الإنسان كجزء من الطبيعة لا يختلف عنها، فيما تطور العقل الأبيقوري إلى فلسفة أخلاقية مادية وضعية لا تعترف بأي دور مفارق للروح الإنسانية، وتتعامل مع الدين والفن على أنه تطور بيولوجي كشفته الدراسات الأنثروبولوجية ؛ فالآلهة خلقها الإنسان ليستطيع أن يسيطر على الطبيعة، ومع العلم وتطور قدراته لم يعد الإنسان المتطور،

ولم يعد "إنسان دارون" بحاجة للآلهة أو للخضوع لها، وإنما العلم الوضعي القائم على المحسوسات والتجربة الإمبيريقية هو الحقيقة والمعرفة المعتبرة.

هذا النموذج المعرفي الغربي كان الأساس المنطقي للنظرية الغربية " العلمانية " في الاغتراب الديني، والذي ينكر ثنائية الروح والمادة، ويقدم نموذجا معرفيا ماديا يقوم على معيار يقول بواحدية المادة، وأنها هي أصل الوجود وطبيعته والإنسان، بينما النموذج المعرفي الإسلامي يقوم على أسس مختلفة تقول بثنائية الروح والمادة " الجسد" وأن الإنسان كان مخلوق من الله سبحانه وتعالى، وهو كائن مكلف بعبادة ربه، ومحاسبه على تكليفه في حياة أخرى، وهذه المعارف جاءت عبر وحي منزل من قبل رسل أرسلهم الله سبحانه ليدعوا البشرية إلى الأيمان بالله وملائكته وكتبه ورساله في صراع الكفر والإيمان.

هذا النموذج المعرفي الإسلامي لا بد وأن يتعامل مع الاغتراب الديني بمنظور مختلف عن المنظور الغربي، وهنا يؤكد الباحث أنه لا يتحدث عن المنهجية وإنما عن النظرية، والفرق واضح وكبير بينهما، فالمنهجية إجراء مجرد، فيما النظرية أداة تفسير وسيطرة، وبالتالي هذا يجعلنا نضع النموذج المعرفي كأداة مقارنة بين المنظور الغربي والنموذج الإسلامي للوصول إلى تأصيل نموذج إسلامي عبر فروض مقترحة يمكن اختبارها والتأكد من صدقيتها لدراسة ظاهرة الاغتراب الديني، رغم اختلاف المفهومين الغربي والإسلامي للاغتراب الديني.

النموذج المعرفي للاغتراب الديني – التأصيل الإسلامي -

يشكل الاغتراب في الأحاديث النبوية في "الغربة" حتمية وقدرا محسوما لا يمكن الانفكاك منه، وتمسك المسلم بالاغتراب يعد جانبا إيجابيا في الإسلام، فمادام المسلم في هذه الحياة فهو محكوم عليه بالاغتراب **(بدأ الإسلام غريبا.. وسيعود غريبا كما بدأ)**

وبالتالي فإن التناول النبوي في الحديث الشريف كان مرتكزا على الجزاء ولم يكن لتقرير الحال وتوكيده، والجزاء لن يكون في هذه الحياة وإنما في الحياة الأخرى، ومن هنا نستطيع أن نلمس فكرة أخرى يقر النموذج المعرفي الإسلامي بمركزيتها وهي الحياة الآخرة مقابل الحياة الدنيا، يقول الله تعالى: **(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى ١١)** فيما النموذج الغربي يرى – كما تقدم – في التصاق الإنسان في الدين اللاهوتي تحقق اغترابه كظاهرة سلبية مقلقة، ويرى الباحث أنه من الممكن أن يصل –تحليليا – إلى وجه التباين بين النموذجين عبر مواصلة التفكيك والتركيب لحديث النبوي الكريم في الغربة، وفي التراث النظري الذي قدمه علماء المسلمين عبر شروحاتهم والتي تطرق الباحث لشيء منها في الدراسة.

نحن في ظاهرة الاغتراب الديني للنموذج الإسلامي أمام متغير الإيمان، يقابله قيمة المنفعة والذرائعية في النموذج المادي الغربي، ومتغير الأيمان هذا يقتضي الإيمان بالغيبيات المتجاوزة لحتمية المادة: الأيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر، ومن خلال الإيمان يصل النموذج الإسلامي لعلاقة عملية تتمثل في عدة متغيرات تركيبية مرتبطة:

إيمان الفرد المسلم باليوم الآخر وأن حياته مجرد دار عبور وليست دار استقرار يقول الله تعالى: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) (غافر ٣٩)

الإيمان بالوحي كنص رباني لا مجال للتشكيك فيه، فهو معرفة يقينية تشكل قيمه ومبادئ حياته يقول تعالى: **(لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)** (فصلت ٤٢)

الأيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم واتباع تعاليمه والتمسك بسنته قال تعالى: (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (الفتح ٤)

احتساب ما يعتري المسلم من مشقة وضيق وكدر بالجزاء الموعود به في الحياة الأخرى الخالدة قال تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)(التوبة ١٢٩)

النظرة الإيجابية لحالة الاغتراب في حياة المسلم عبر إقرار درجات من الإصلاح في النموذج الإسلامي للاغتراب، ففي حديث الغربة **(الذين يصلحون ما أفسده الناس)** وأن على المسلم عدم الاستسلام والترك ما دام على قيد الحياة، ودرجات الإصلاح متفاوتة بحسب القدرة بين التغيير باليد، ثم التغيير بالقول والتوجيه، ثم مقام الإنكار بالقلب، وهو درجة تثبت الموقف الفرداني في رسالة الإسلام، والذي يعزل الفرد المكلف عن خيار الجماعة، فالعبرة ليست بالأكثرية، و لا برأي الدهماء والسائد، بل في التشريع والصحيح حتى لو لم يتبعه إلا القلة، هذا النموذج الإسلامي يقوم على فلسفة الثبات في المرجعية والمعيارية الصارمة، وليس للنسبية أو اللا معيارية العدمية كما في النموذج الغربي للاغتراب الديني.

الرضا والتسليم مبدأ يقره النموذج الإسلامي في حياة المسلم يقوم على أن ما يفعله المسلم لا يمكن تصنيفه تحت بند "اللا معنى" **Meaning less** وهذا الشعور باللامعنى وعدم جدوى ما يقدمه الفرد شعور مغذي للاغتراب بأنماطه الطقوسية والإنسحابية بحسب تقسيمات ميرتون، وقد عالجه النموذج الإسلامي بمبدأ الاحتساب بشكل إيجابي.

الرقابة الذاتية مبدأ يقدمه النموذج الإسلامي مضمنا في فلسفته في التعامل مع شعور الاغتراب، ففي أحد طرق "حديث الغربة" الصحيحة فسر النبي صلى الله عليه وسلم الغرباء بقوله: **(الذين يَصّلِحون إذا فسد الناس)** وهو مبدأ متحقق في الآية

الكريمة من سورة المائدة **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (المائدة ١٠٥)**

ومن خلال هذا الاجتهاد التحليلي يرى الباحث إمكانية سك فروض لإثراء النظرية " اللا معيارية" لدى روبرت ميرتون، يمكن اختبارها تجريبيا للوصول لإطار نظري للاغتراب يأخذ بالاعتبار النموذج المعرفي الإسلامي.

ولكن قبل ذلك يرى الباحث أن من الضروري التنبيه على ملاحظة جديرة بالاختبار والنظر، وهي أن للتدين جانب روحاني غير مادي، وهذه الثنائية بين الروح والمادة كانت الفارق الأهم بين النموذج الإسلامي والنموذج الغربي المستند على المادة فقط في الاغتراب، بينما استوعب النموذج الإسلامي ثنائية الروح والمادة وتعامل معهما جميعا دون خلط يفضي إلى حلولية الروحاني بالمادي، ولذا يفترض الباحث أن تداخل المؤسسة السياسية ذات الطابع الحداثي المادي في الظاهرة الاجتماعية للدين "ذات الطابع الروحاني المفارق" يحيلها إلى أنظمة وقوانين بحسب النموذج المعرفي للمؤسسات، وفي تحويل الظاهرة الدينية إلى ظاهرة مؤسساتية سياسية سببا في الشعور بشكل من أشكال الاغتراب الديني يقابل الاغتراب الديني الناتج عن الترك تماما، كما يفترض الباحث أن الحل للاغتراب الديني في المجتمعات الإسلامية ليس في تحويل الدين إلى ظاهرة مؤسساتية أو سياسية أو إيديولوجية نفعية، بل يجب أن يكون التدين ظاهرة مدنيا فردانية وفعلاً وتنشئة اجتماعية لا تتدخل بنية الدولة في توجيهها أو استغلالها لأي أهداف مهما كانت غايتها، ويعتقد الباحث أن هذا ما كان هيجل يطور جدليته في التدين للوصول إلى هذا المفهوم حتى انتهى به طريق التخلص من عبئ الأنظمة والقوانين الدينية إلى شكل من أشكال الدين الربوبي دين الروح المطلق، وهذا ما يعده الباحث تطرفا معرفيا للتخلص من إشكالية الاغتراب الديني عند هيجل.

الفروض المقترحة:

يقترح الباحث مجموعة من الافتراضات التي توصل لها من خلال عمليات الاستقراء والتحليل والمقارنة للوصول إلى اقتراح مقاربة نظرية للاغتراب الديني من منظور إسلامي:

فرض (١) كلما انعدمت التنشئة الدينية في المجتمع، زاد الشعور بالاغتراب الديني، وتنامى الشعور باللامعيارية.

فرض (٢) كلما تنامى الشعور باللا معيارية في المجتمع، ضعف الضبط الاجتماعي، وتنامى الشعور بنمطي الانسحابية والتمرد.

فرض (٣) كلما ارتفع الشعور بنمطي الانسحابية والتمرد في المجتمع، ضعف الانسجام الاجتماعي.

فرض (٤) كلما تحولت التنشئة الدينية إلى ضبط مؤسسي (نظم/قوانين) زاد الشعور بالتدين الطقوسية، وارتفع الشعور بالاغتراب الديني.

ويرى الباحث وجوب تعريض تلك الفروض للفحص والاختبار عبر دراسات كمية لمجتمعات إسلامية للتثبت من مصداقيتها بعلاقات كمية إحصائية، وهذا ما كان الباحث يهدف الوصول له، من توظيف ودمج المنهج العلمي بالأطر النظرية الإسلامية للوصول لأفضل النتائج في دراسة الظواهر الاجتماعية في مجتمعات إسلامية.

الخاتمة:

مع ختام الدراسة توصل الباحث إلى عدة نتائج:

أولا: ثمة أوجه قصور نظري في تطبيق النموذج المعرفي الغربي على دراسة ظاهرة الاغتراب الديني في المجتمعات الإسلامية، تتمثل في استناد النظرية الغربية لنموذج تجريبي حسي في ظاهرة اجتماعية قائمة في المجتمعات الإسلامية على أبعاد غير مادية، عبر قراءة تحليلية مقارنة في تراث أربعة من منظري وفلاسفة المدرسة الغربية.

ثانيا: لمس الباحث تباينات وفروقا جوهرية بين منظور النموذج المعرفي الغربي وبين النموذج الإسلامي في دراسة ظاهرة الاغتراب الديني، هذه التباينات أنتجت اختلافا بين مفهوم الاغتراب الديني في المنظورين الإسلامي والغربي، فالغربة الدينية في المفهوم الغربي كانت سلبية لاستنادها على نموذج معرفي مادي يرى أن الدين حالة سلبية في المعرفة الإنساني، بينما في النموذج الإسلامي كان للاغتراب مفهوما إيجابيا، وهذه التباينات لها تأثيرها على مرجعية القيم والمعتقدات الإسلامية، وهي كامنة في النموذج المعرفي الغربي عبر تحيزات علمية في بنية النموذج لا يمكنها الانفكاك منه، وقد توصل إليها الباحث عبر قراءة استقرائية مقارنة، وتوظيف "البراديم" كأداة مقارنة.

ثالثا: توصل الباحث إلى صياغة مجموعة من الفروض الجديدة على النظرية اللا معيارية لروبرت ميرتون، وقد استقى الباحث تلك الفروض من النموذج المعرفي الإسلامي، والذي قام الباحث بتحليلية وتركيبه من خلال قراءة تحليلية لحديث "الغربة" في السنة النبوية الكريمة، والإسهامات النظرية لمجموعة من العلماء المسلمين في الاغتراب، ويوصي الباحث بإجراء دراسات كمية وصفية لاختبار تلك الفروض وفحص مصداقيتها.

رابعا: يرى الباحث بأن ما قدمه من جهد يعد مجرد محاولة - وأن كانت جريئة - إلا أنها أيضا كانت ضرورية للخروج من قولبة العقل البحثي وتنميطه للرضوخ والاستسلام للالتزامات النظرية في النماذج الغربية، بينما علم الاجتماع من العلوم التركيبية التي توجب الصرامة المنهجية لا النظرية.

خامسا: يوصي الباحث بإجراء المزيد من البحوث المسحية الوصفية للظواهر ذات البعد الثقافي في عالم مختلط يتجه إلى تنميط المرجعيات وثباتها، وترسيخ الحس المشترك على نموذج ثقافي غربي واحد، لا يقبل الجدل والمساومة على صحة وسلامة نموذجه المعرفي والإدراكي.

المراجع والمصادر

[١] ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد، كشف الكربة في وصف أهل الغربة، نسخة المكتبة الرقمية الشاملة.

[٢] ابن قدامة، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين في منزلة إياك نعمد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي/ ص٧ ٢٠٠٣م.

[٣] بركات، حليم، الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦م.

[٤] بالعباد، عبدالقادر، الاتجاه نحو العنف وعلاقته بالاغتراب لدى الشباب في ضوء متغير الثقافة والجنس، جامعة وهران، ٢٠١٣م

[٥] الجديع، عبدالله يوسف، كشف اللثام عن طرق حديث غربة الإسلام، منشورات مكتبة الرشد، ١٩٨٩م.

[٦] الاجري، محمد بن الحسين، كتاب الغرباء، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، ١٩٨٣م

[٧] الخمسي، عبداللطيف، فلسفة الدين وجدل اللاهوتي والأنثروبولوجي عند لودفيج فيورباخ، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٥م.

[٨] فيورباخ، لودفيج، أصل الدين، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، ط١ ١٩٩١م

[٩] قطب، محمد، حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، دار الشروق ط١، ١٩٩٨م.

[١٠] الشيخي، حسن بن علي، "الأنومي" مفهم الذات والسلوك الانحراف لدى المنحرفين وغير المنحرفين في مدينة الرياض، جامعة الأمير نايف العربية للعلوم الأمنية، ٢٠٠٣م

[١١] عبدالجبار، فالح، الاستلاب، دار الفارابي، ط٢ ٢٠١٨م

[١٢] عبدالحليم، مهورباشة، التأصيل الإسلامي لعلم الاجتماع مقاربة في أسلمة المعرفة، دراسة دكتوراه / منشورات جامعة سطيف الجزائر

[١٣] الغريب، عبدالعزيز، نظريات علم الاجتماع، دار الزهراء ط٢ ٢٠١٦م،

[١٤] كون، تومس. س، بنية الثورات العلمية، مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٧م

[١٥] رجب، إبراهيم عبدالرحمن، التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب ١٩٩٦م.

[١٦] رقيعي، نادية عبدالحميد، دراسة تحليلية لأزمة القيم، منشورات جامعة طرابلس، العدد ١٠ ٢٠١٦م.

[١٧] الرواشدة، علاء زهير، الاغتراب الثقافي لدى الشباب الجامعي في ضوء العولمة الثقافية، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٩ العدد٣، ٢٠١٢م

[١٨] مراد، بركات محمد، مفهوم الاغتراب بين الفكر الغربي والفكر العربي، منشورات النادي الأدبي/جدة ج٨٤، ٢٠١٥م.

[١٩] المسيري، عبدالوهاب، دفاع عن الإنسان، دار الشروق ط٣ ٢٠١٤م

[٢٠] نهائلي، حفيظة، الاغتراب الديني، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، العدد١٣ ٢٠١٣م

[٢١] الهواشي، سامية، من نقد الخرافة إلى نقد الاغتراب، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣م.

[٢٢] الموسوعة العربية العالمية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

The Sociology of Religious Alienation: the Western epistemological paradigm comparing with the Islamic paradigm. An analytical inductive comparative study on a sample of The Noble Hadiths in the Alienation.

Abdullah Hamad Al-Zaid
Post graduate student / Qassim University

Abstract : **T**his study aims to establishing at an Islamic epistemological paradigm for studying the sociology of " religion's alienation " in Islamic societies, by employing an inductive analytical method on the **S**ahih from the holy prophetic Hadiths in " religion's alienation ", and critical reading in the traditions of three Muslim scholars in religion's alienation: Ibn Taymiyyah, Ibn Rajab, and Imam Shatby, then comparing these interactions with those of four Western philosophers and theorists: Hegel, Feuerbach, Emile Durkheim, Robert Merton, and presenting a proposal for enriching theoretical assumptions on the medium-term "non-normative" theory of Robert Merton. Researcher came up with some results and Practical indicators for studying religion's alienation in Islamic societies.